مدام دي ستال

عظيمة هي السيدة التي يهتم بها النابغة العظيم فيخافها في ايام عزّه ويسعى ليستميلها اليه ولما ييأس من نيل صداقتها يحنق عليها ويبعدها عنه · ثم يسألها المعونة لتأييد ما استرجع من العزّ بعد فقده اياه · وكريمة من تجهر بالحق وتخدم الانسانية كما تعتقد دون اعتداد بالنفي والاضطهاد · وحريٌّ بالحسناء ان تزيّن جيدها بعقد سيرة هذه العظيمة

عندما رجع نابوليون بونابرت من منفاه جزيرة إلب الى امبراطوريته فرنسا سأل سيدة كان قد اضطهدها وهو في ذروة المجد ان توافيه الى باريز لان وجودها فيها ضروري لتأييد المبادي، الدستورية · فاجابته - انك لم تحفل بي ولا بالمبادي، الدستورية مدة اثني عشرة سنة ولا اخالك الآن تحب فريقاً منا اكثر من الثاني

فهذه السيدة التي رأى نابوليون وجودها ضرورياً في باريز لتأييد المبادى، الدستورية لم تكن إلا مدام دي ستال الكاتبة الشهيرة التي جاهدت في سبيل الحرّية والانسانية جهاد الابطال ونالت من الشهرة في حينها ما بلغ كل انحاء اوربا ثم تجاوزها الى كل بلاد تحى ابناؤها وجهة الاستنارة · ولا يزال صدى عظمتها مؤثر في اذهان الناس الى اليوم · فقد تألف من عهد قريب لجنة من السيدات الفرنسويات لاقامة تمثال لها في باريز وشاركهنّ في ذلك لجنة من السيدات الانكليزيات

وهي حنه ـ لويز ـ جرمان نكر · بارونة دي ستال هولستين · ولدت في باريز يوم الثلاثاء في ٢٢ نيسان سنة ١٧٦٦ وترعرعت في احضان الثروة والوجاهة والنبل · وكان ابوها يعقوب نكر صيرفياً مشهوراً تولى الوزارة المالية مرتين على عهد الملك لويس السادس عشر وألف كتاباً مهماً عن احوال فرنسا بيع منهُ ثمانون الف نسخة في اسبوع · وكانت امها سوسان نكر عاقلة محسنة مشهورة فتحت بيتها لعظماء الفرنسويين وجعلته ناديا للفلاسفة والكتاب والشعراء وعاونت قرينها في معظم اعماله ومكنتهُ من ارتقاء المجد · إلاَّ انها كانت قاسية في اساليب التربية وذات آراء تخالف عواطف الاحداث وتناقض اصول الفن فلم تحسن تربية كريمتها كما تستوجب احوالها وان تكن عودتها مجالسة الحكماء والكتبة والمفكرين · ولحسن حظ الابنة انها لم تتأثر من ذلك كما كان ينتظر لان والدها قد استدرك لامر فاكتسب ثقتها بلطفهِ ودرايتهِ واستطلع قوى نفسها فعرف كيف يقوى عَلَى تربيتها وكبح جماح اميالها دون ان يؤلمها كامها · فصارت تكاشفهُ بخفايا قلبها مستعيضة بحنانهِ عن حنان الامّ وتعودت ان تراه مصلحاً لهفواتها باللطف والاقناع · وكان قرينها البارون دي ستال هولستين سفيراً لاسوج في فرنسا عندما اقترنت بهِ عام ١٧٨٦ ويقال انها كادت تقترن بالسياسي العظيم وليم بت احد رؤساء الوزارة الانكليزية ابن اللورد شتام لولا ايثاره العزوبة عَلَى الزواج لئلا يعوقهُ (عَلَى رأيه) عن خدمة أمته · وبعد ترملها سنة ١٨٠٢ طلب يدها الكونت دي سان سيمون الفيلسوف الاشتراكي فلم ترضه

وظهرت دلائل النبوغ عَلَى الآنسة نكر من حداثتها فانتبه زوار البيت الى ذكائها وأعجبوا باستعدادها فاسترعى اهتمامهم فصاروا يحدثونها كانها كبيرة ويباحثونها بما تقصر عن البحث فيه اترابها المتعلمات وكانت هي تصغي الى ما

يقولون بانتباه ورزانة وتجاوب بما يبرهن على ان قوة عقلها تفوق نسبة عمرها وان ادراكها يربو على حداثة سنها. وهذا ما أهلها لتبدأ بالتأليف والانشاء في ربيعها الخامس عشر اذ انتخبت بعض شذرات من كتاب روح الشرائع لمونتسكيو الفيلسوف وشرحتها. وبالنظر لمعاشرتها العلماء والعظماء من صغر نشأت على حبهم ونحت مناحيهم انما عجزت عن اتباعهم والتشبه بهم تماماً في بادىء الامر لما اورثها اياه اجهاد الفكر ومداومة الشغل من الضعف في الصحة والنحول في الجسم حتى اضطرت الى مغادرة باريز الى احدى ضواحيها حيث اقامت مدة في خلوة جميلة في احضان الطبيعة كانت لها بمثابة مدرسة طبيعية كمالية اعادت اليها العافية وزادتها شعوراً سامياً فاستطاعت متابعة الدرس والبحث والتنقيب ولم تدع كتاباً مشهوراً إلاَّ وطالعتهُ. وكانت تعتبر فلسفة جان جاك روسو اعتباراً عظيماً أثر في نفسها تأثيراً كريماً

ولما لمعت شرارة الثورة وبانت طلائعها مالت اليها مدام دي ستال واحبتها كشقيقة ثانية لها فاندفعت مع تيارها بشدة وحماسة وخدمتها كثيراً لاعتبارها اياها خير منجٍ لفرنسا من سقوط هائل وافضل موصد لابواب الانحطاط والفقر والجهل والذل. وانها السبيل الوحيد لسعادة الامة ونجاتها من مخالب الفساد الاجتماعي السياسي ولاصلاح المفاسد وتأييد دعائم العمران. لكنها لم ترضَ عن سيئاتها بتة

ولما رأت فظائع الثوار الفائقة الحد وتطرفهم بالفتك وامتداد ايديهم الى الابرياء وغوصهم بالدماء حتى النؤوس نفرت منهم وعملت على مقاومتهم فكتبت بجرأة تنتقدهم وتلومهم وتندد بهم فاصابت بكتاباتها موقعاً عظيماً في القلوب واستمالت اليها فريقاً منهم ساعدها على حفظ حياة كثيرين وخاطرت

بنفسها مراراً مجاهدة في سبيل وضع حد لفظائعهم وتخليص المعرَّضين المهدَّدين من الوقوع بحبائلهم لاسيما الاسرة المالكة والاصدقاء والاقرباء والابرياء فخلصت عدداً وافراً منهم ولولا بعض الموانع لفازت بوقاية الملك وعائلته شرّ القتل وعبثاً ذهب كتابها البليغ في الدفاع عن الملكة ماري انطوانيت . كانت مرة ذاهبة لتوصل صديقاً لها الى خارج باريز صيانة لهُ من شرّ الثائرين فقبضوا عليها وانزلوها مكرهة من المركبة وقادوها الى زعيمهم روبيسبيير فاخترقت الجماهير والسيوف مسلولة بايديهم والبنادق مدكوكة بالرصاص وكلها مصوَّبة الى الفضاء كالمظال ولو لم تبدِ من الضعف قوة وتثبت في السير دون اعتداد بالرفاهة والدلال لقضي عليها بلا شفقة . وبقيت ست ساعات تعاني مضض سمع ثأوهات الجرحى وانين المشرفين عَلَى الموت وصراخ المتألمين المتعذبين الى ان أفرج عنها وسمح لها بالرجوع . وما برحت عند اشتداد الثورة وعدم امكان احتمالها بعد ان هجرت فرنسا ولجأت الى قرية كوبه الجميلة في سويسرا وبقيت فيها الى ان هدأ الثائرون وكادت تنتظم الاحوال

ولما عادت الى باريز احاطت بها نخبة الناس فكانت روح الحزب الدستوري الحرّ نافذة الكلمة في ذويها محترمة مكرَّمة أُعجبت بنابوليون مذ عرفتهُ ورأتهُ افضل من زعماء الثورة لعدة امتيازات فيهِ عليهم . إلاَّ انها اوجست منهُ استبداداً فمالت عنهُ ونفرت منهُ لاسيما لما ترآى لها انهُ يحتقر الامة التي يرغب في ارتقاء عرشها ورأتهُ يهم بالاستظهار عَلَى الجمهورية واستلام ازمة الاحكام باسم امبراطور . ويقال انها كرهتهُ لعدم اكتراثهِ بها لقاء اعجابها بهِ . فناوأتهُ وجهرت بمعاندتهِ وفتحت بيتها لاضداده ومناوئيهِ ودفعت بنيامين كونستان الكاتب الخطيب الى الخطابة ضده . فتحذر منها نابوليون وطلب مصافاتها بعدة

وسائل وارام تسكيتها بالمال فوعدها بلسان شقيقه جوزف الذي ارتقى عرشي نابولي واسبانيا بدفع المليوني ليرة الذين كانا لابيها على الدولة فعدّت ذلك رشوة فرفضتها واجابته بانفة عندما سألها عما تطلب اذاً بما معناه : اني افعل ما اعتقد فعلهُ واجباً لا ما احصل بهِ على امر خصوصي اشتهيهِ

فلما رأى نابوليون منها هذا الاباء وكان يعلم انها تحب سكنى باريز ومعاشرة عظمائها وفضلائها محبة عظيمة وكانت نيران الحقد تتأجج في قلبهِ عليها ابى إلاَّ الانتقام منها فمنعها من الاقامة في العاصمة ثم اذ لم يجده ذلك نفعاً نفاها من كل البلاد الفرنسوية فغادرتها الى المانيا واقامت في ويمر قاعدة امارة سكس ويمر بين مشاهير الكتبة والفلاسفة مثل شيللر وكتهوو يلان ودرست اللغة الالمانية وآدابها وهي متجاوزة العام الخامس والثلاثين واطلعت على عادات اهلها واخلاقهم ودققت فيها كثيراً حتى استطاعت تأليف كتابها الكبير عن المانيا وهو من اهم تآليفها ومن اغزرها مادة ومن اكثرها افادة . حُرقت نسخ طبعته الاولى وكانت عشرة الاف نسخة بامر نابوليون نكاية بالمؤلفة على انهُ كان لاطلاع الفرنسويين على ما جهلوه من احوال الالمانيين على مجاورتهم لهم والتصاقهم بهم بل لاطلاع العالم كافة على خفايا القوى العظيمة الكامنة في الالمان . وهكذا تكون عرَّفتهم الى كل الناس

ومات ابوها وكانت محبة بهِ كثيراً وتحبهُ بكل ما فيها من قوى الحب فرجعت الى سويسرا ولعظم حزنها عليه ضعفت صحتها فسارت الى ايطاليا لتتقوى بهوائها النقي المنعش فاثارت بهـا مناظرها البديعة وتذكاراتها العظيمة ثورة عجب واحترام حركت نفسها وقلمها معاً موحية اليهـا تلك الرواية الجميلة كورين التي اعجب بها كثيراً سانت بيف النقاد الشهير وترجمتها الى العربية الكاتبة المجيدة

الدكتور ايسه صيبعه الطرابلسية فنشرتها في فرنسا اذ كانت عادت اليها ونالت موقعاً عظيماً في كل اوربا حسدها عليه نابوليون وتكدر بما تراءى لهُ فيها من التعريض به تلميحاً بما لا يرضي . وردَّ عليها . ومن اقصى برلونيا جدَّد امره للمؤلفة بترك فرنسا الى الابد خوفاً من ان تعود لاثارة الخواطر عليه لاعتباره اياها عدوًّا مؤثراً فيه كثيراً . فعادت الى كوبه كئيبة كاسفة البال واذ جاء لزيارتها بعض اصدقائها من باريز قضى عليهم بالنفي مثلها . فلم تعد تحتمل هذا الجور فقصدت فيينا وبما انها لم تُحْمَ من مراقبة الجواسيس توجهت الى الاستانة ثم الى موسكو فبطرسبرج حيث بقيت على ارهب واجلال العظماء لها شأنها في كل مكان حلت فيه الى ان وصل بونابرت بجيوشه الى موسكو فسارت الى بلاد اسوج فصرفت عدة اشهر وبرحتها الى لندن وفيها عنت باعادة طبع كتابها عن المانيا ولم ترجع الى فرنسا إلاَّ بعد سقوط عدوها نابوليون وملك لويس الثامن عشر

فرجعت ولكنها مريضة بداء عضال وعبثاً حاول الاطباء منع الافيون عنها بعد اعتيادها عليه . وكثيراً ما رددت امثال هذا الكلام — لا اظنني جاهلة حقيقة الانتقال من الحياة الى الموت . وانا متيقنة ان رحمة الله تخفف عنا مرارة تلك الساعة فافكارنا عندئذ تضطرب فتخف فينا وطأة الالم وحدَّته — وهكذا حدثت وفاتها بهدوء في ١٤ تموز سنة ١٨١٧ عن واحد وخمسين عاماً فقط وبضعة اشهر

كانت مدام دي ستال عظيمة بمآثر عديدة . ربَّت اولادها بنفسها . وعلمتهم جيداً . ولم تهمل شؤونهم حتى في اشد ايامها حزناً . مثلت في السياسة دوراً كبيراً . وخدمت الانسانية كالابطال . ناضلت عن الحق بجرأة وانتصرت للحرية بنشاط . قاومت مظالم المستبدين على عهد الملكية وفظائع السفاحين في الثورة

واستبداد نابوليون في قنصليته وامبراطوريته. وحسبها الجهر بانتقاد هذا الجبار الذي دوّخ العالم وسيرهُ مدة كما اراد واهتمام مؤرخي حوادثه باستحسانها القانون الذي وضعهُ بعد رجوعه من إلب وتدوين رأيها فيه في كتبهم عنهُ. تحملت مشقات النفي وعذابات الاضطهاد بنفس كبيرة لم تعبأ بالتعب. كتبت كثيراً في المواضيع الادبية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية ولكثرة الامور التي تناولتها سميت فولتير النساء، وعدّت اعظم مؤلفة بينهن وشبهوها بالتضلع والتبحر بمونتيسكيو وبالعواطف بروسو ولم يجدوا لتدقيقها مثيلاً بين بنات جنسها العظيمات ولقد بلغت كتاباتها عدداً ثمانية عشر مجلداً تعمدت فيها ثلاث غايات سامية: توسيع علم الجمال. وتفنيد آراء فلاسفة فرنسا الماديين. وبث روح الحرّية. لاعتبارها اياها اعظم وسيلة لسلامة الاداب والدين. ومهرت بالموسيقى والتمثيل وتوامت بالفنين لميل طبيعي فيها وألفت جوقاً من الطبقة الراقية وكتبت عدة روايات مثلت اهم ادوارها الحزنة المؤثرة. وسّعت نطاق آداب اللغة الفرنسوية وأثرت تأثيراً عظيماً في تاريخ النهضة الادبية في غرة القرن التاسع عشر المعروفة بالرومانتسيم. وزادت الفرنسويين حباً بشكسبير وأيدت شهرتهُ وعظمتهُ في فرنسا. ونالت مؤلفاتها من التقريظ والانتقاد ما زادها شهرة ومكانة لاسيما روايتها دلفين اذ عاكست بها افكار معاصريها ومبادىء الكاتب شاتوبريان. شأنها غالباً في ترك التقاليد القديمة واقتباس الجديد معتقدة ان كل حالة تستلزم مذاهب كتابية مناسبة لها ذهاباً مع المثل العربي القائل — لكل مقام مقال

وصفتها مرة نسيبة لها بما يأتي - كانت لطيفة الحركة والاشارة. ملامحها لم تكن متناسبة اذا مجموعها يجذب البصر ويستوقفهُ لما بهِ من جمال النفس المتلألىء من خلالها. عيناها ذات جمال نادر تنبعث منهما دلائل روحها السامية كأن

بناظرها شرارة باهرة تنذر كالبرق بدنو كلمة لا يقلُّ فعلها عن الصاعقة · حديثها ذو قوة وثبات وارتفاع يزداد رزانة بما في جسمها من السمن وجلستها الجميلة من الابهة والهيبة · ذراعاها جميلتان للغاية بما بهما من الاستدارة والبياض الناصع · ولبسها بما فيهِ من البساطة وعدم الاحتفاء بالازياء الدارجة يستلفت النظر · فمن نظر اليها مرة واحدة أثرت بهِ فلم يعد ينساها

وقد اشتهرت مدام دي ستال بسمو الحديث والتفنن والبحث في كل المواضيع فكان الملوك والعظماء يتمنون مجالستها وايما وجدت كانت ملكة الاجتماع لا بجمال طلعة مسرعة للذبول بل بجمال روح سامية وقلب مستنير بنور الحماسة والحب · وكان بيتها ناديًا لاشهر الناس واعظمهم وكانت ثقية متدينة على مذهب طائفتها الانجيلية · ومع علو مقامها ومجدها ونفوذها وعظمتها النادرة بين السيدات لم تكن تعبأ كثيراً بالرسميات والتقاليد المرعية بين الاعيان بل تفردت بامور عديدة وكان لها زي خاص يعرف لليوم بكوافير دي مدام دي ستال · ولوفرة استعدادها وغرابة اطوارها عُدَّت آية عصرها · ومما يروى عنها انها لما قدَّمها قرينها الى البلاط الملوكي سهى عن بالها ان تحني كالعادة امام الملك والملكة وان بطانة ثوبها كانت مفتوقة · وتركت مرة قبعتها في مركبتها سهواً وهي آتية لزيارة · وعندما رُزق نابوليون ولداً وكان الملوك والعظماء يهنئونهُ من جميع انحاء العالم وكانت هي منفية في سويسرا اشار عليها الحاكم ان تغتنم هذه الفرصة فتستميل الامبراطور بكتابة شيء عن المولود فيكفّ عنها اذاه · فاجابتهُ : جل ما اتمناه ان يرزق الله الصبي مرضعة موافقة

وكرامة اخلاقها وسمو عواطفها كانا يحملانها على ان تكون اول من يسخر

بهفواتها ويقرّ باغلاطها ومع كل حنق نابوليون عليهـا وتأثره منها لم يقل عنها انها شريرة ولا مرة واحدة كما يشهد بذلك كاتبو سيرته

فسيدة كهذه في بلادنا تربو قيمتها على المئات والالوف

لمحة في المرأة

للمرأة تأثير في كل شيء ويد في كل عمل · ولها حقوق وعليها واجبات كالرجل · إلاّ انها تختلف في النوع والكيفية من جملة وجوه كما تتفق في الغاية والمقصد في كل حال · اذ كلاهما يجاهدان في سبيل البقاء ويهتمان بشؤون الحياة ويرغبان في السعادة ويتطلبانها قدر الامكان بل لاجلها يشتغلان ويسعيان بعد ان يأمنا شر البؤس او فيما هما يحاولان التخلص منهُ · ولذلك لا نحددها الان ولا نعرفها باكثر من هذا لانها محدودة معروفة وغنية عن كلمة تقال فيها بعد

بيد اننا نستحسن الجهر بما للمرأة من الفضل في العالم اقراراً بالحق وخدمة للحقيقة · ونرى من الواجب ازالة سوء التفاهم بالتنويه بمحاسنها وتعداد فضائلها وتبيان تأثيرها الظاهر والخفي بالتفصيل والاسهاب اصلاحاً لمفاسد اوهام البعض وتفنيداً للاعتقاد البالي ريب الجهل أليف الجور الموهم بان المرأة حي مضر مجلب الشر · ليتأكد المكابرون ان هذا النوع من بني الانسان على غير ما يتوهمون

لان المطلع على اخبار الناس قديمها وحديثها والمستقصي احوالهم جيداً يرى المرأة عاملة في سبيل الانسانية بنسبة عمل الرجل فيهِ بل مؤثرة في ذلك احياناً